جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة – الجزائر
ISSN: 1112-4377, EISSN: 2588-2384
المجلد: 28 العدد: 5 السنة: 2024
مجلة المعيار
EL MIEYAR

دور المدارس الحرة في الحفاظ على اللغة العربية والهوية الوطنية إبان الاحتلال الفرنسي

The Role of Free Schools in Preserving the Arabic Language and National Identity During the French Occupation

صافية دراجي[1]
safia.derradji@univ-bejaia.dz

تاريخ الاستلام: 2024/06/30 تاريخ القبول: 2024/08/31 تاريخ النشر: 2024/09/15
Received: 30/06/2024 Accepted: 31/08/2024 published: 15/09/2024

الملخص:

اتبعت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سياسة رشيدة للحفاظ على الهوية الوطنية.. ومن أهم الوسائل التي اعتمدتها إقامة المدارس الحرة في كل ربوع الوطن.. وكانت لنا وقفة في هذا المقال لتناول إشكالية لاتزال مهمة ونحن نستذكر الإمام ابن باديس وصحابته الكرام ونعترف لهم بالفضل الجميل والكبير في محاربة الاستعمار، فهل نجحت المدارس الحرة في الحفاظ على الهوية الوطنية في ظل تواجد الاستعمار الغاشم الذي كمم الأفواه وخنق الحناجر؟ وللإجابة عن هذا السؤال الجوهري تناولنا في عملنا نقاط مهمة.. نذكر من بينها: واقع المجتمع الجزائري في ظل سياسة الحرب الفكرية الفرنسية، المدارس الحرة ودورها في الحفاظ على الهوية الوطنية، الانتشار الواسع للمدارس الحرة، وتوصلنا إلى أن هذه المدارس تمكنت من محاربة سياسة التجهيل التي مارستها فرنسا، وساهمت في الاصلاحات، وربت شعبا متعطشا للاستقلال.

كلمات مفتاحية: جمعية العلماء، المدارس الحرة، اللغة العربية، الوطن.

Abstract: the Association of Algerian Muslim Scholars implemented a prudent policy to preserve national identity, notably through establishing widespread free schools across the country. In reflecting on Imam Ibn Badis commendable efforts against colonialism, the article raises the question of whether these free schools effectively preserved national identity despite oppressive colonialism. Key points addressed include Algerian society under French ideological warfare, the pivotal role of free schools in maintaining national identity, and their widespread establishment.

Keywords: Scholars association, free schools, free schools, arabic language, country..

(1) جامعة عبد الرحمن ميرة – بجاية (الجزائر)..

مقدمة:

منذ وطئت أقدام الاستدمار الغاشم أرض الجزائر وهو يسعى إلى تخريب وهدم وطمس كل ما يربط الجزائري بأصله وهويته.. بتاريخه ودينه ولغته. كانت الحرب الفكرية والثقافية من أهم الأساليب التي اعتمدها المستدمر الغاشم. وكادت أن تأتي أكلها لولا أن قيض الله رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. فوقفوا بالمرصاد لمخططات فرنسا الاستدمارية، وطرائقها الوحشية وأساليبها الهمجية.

ومن بين الطرائق التي نهجها المصلحون في الجزائر للحفاظ على الهوية الوطنية بما فيه اللغة العربية والدين الإسلامي اعتمادهم نهج القرآن الذي يدعو إلى العلم والمعرفة، فكانت النهضة الفكرية بإنشاء المدارس الحرة في ظل توجه الاستدمار نحو التجهيل، بغلق أبواب المدارس في وجوه الجزائريين، مع فرنسة التعليم للفئة القليلة التي التحقت بمعاهدهم.

فكان للمدارس الحرة دور كبير في تثقيف الشعب الجزائري وربطه بدينه ولغته ووطنه، هذه المدارس التي مست تقريبا كل ربوع الوطن، وامتاز مؤطروها بالحنكة والحذر، وجاهدوا من خلالها بالقول والعمل، وحيث لا علم لا يمكن لعمل أن يفيد.

وسنسعى في هذا المقال إلى الإجابة عن سؤال مهم وهو ما دور المدارس الحرة في الحفاظ على الهوية الوطنية في ظل السياسة الاستعمارية الفرنسية التي كممت الأفواه وخنقت الحناجر؟

هل تمكن المصلحون في الجزائر، بمدارسهم الحرة المنتمية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومختلف الجمعيات والأحزاب الأخرى من إعادة الاعتبار للغة العربية في الأرض الجزائرية؟

لقد سعينا من خلال هذه الورقة البحثية إلى رسم صورة واقع المجتمع الجزائري قبل الهيمنة الاستعمارية، حيث انتشار العلم والمعرفة، وانتشار المعاهد والمدارس، ثم ما كان من انحطاط ودمار شامل مس هذا القطاع بسبب الحرب الفكرية والثقافية والعلمية التي أعلنها الاستعمار الغاشم فاستفحلت الأمية وانتشر الجهل. وفي المقابل أبرزنا دور المدارس الحرة، ودور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مع رائدها "**عبد الحميد بن باديس**" التي تأسست يوم الثلاثاء 17 من ذي الحجة 1349هـ الموافق لـ 5 ماي 1931 بنادي الترقي في الجزائر العاصمة والتي ساهمت بمعية المؤسسات والجمعيات المهتمة بالشأن العلمي في إعادة الاعتبار للواقع العلمي والفكري الجزائري، بنشر العلم والمعرفة وربط الشعب بأصوله، وفتح عقله على العلوم الدينية واللغوية ومختلف المعارف التي تؤهله لأن يجاهد من أجل بقائه، ويجاهد من أجل عقديته، في مخطط وإن كان على المدى البعيد لكن الهدف منه هو رسم خارطة طريق استقلال الجزائر.

وعلى هذا كانت للمقال ثلاثة محاور رئيسية هي:

* واقع المجتمع الجزائري في ظل سياسة الحرب الفكرية الفرنسية.
* المدارس الحرة ودورها الطليعي في الحفاظ على الهوية الوطنية.
* جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والانتشار الواسع للمدارس الحرة.

واقع المجتمع الجزائري في ظل سياسة الحرب الفكرية الفرنسية

1.2 انتعاش الحياة الثقافية قبل الاستعمار الفرنسي:

إن الحياة الثقافية قبل الهجمة الاستدمارية الشرسة كانت مطبوعة بالطابع الإسلامي، وكان انتعاش الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية واضحا للعيان. كان التعليم منتشرا انتشارا واسعا في المدن والقرى والأرياف، للذكور والاناث، بل إن هناك اعترافات من مؤرخين فرنسيين أنفسهم بأن نسبة المتعلمين في الجزائر كانت حين دخلوها محتلين تفوق نسبة المتعلمين الفرنسيين، وهذا اعتراف خطير، يرسم الفرق الشاسع بين الشعب الجزائري المتعلم والشعب الفرنسي الجاهل في عمومه.

وكانت مراكز التعليم الجزائري تتنوع ما بين المدارس والمساجد والزوايا، تمول عن طريق الأوقاف التي يحبسها أهل الخير والصلاح، والموظفين السامين في الدولة (مطبقاني، 1999، صفحة 18) .

آمنت الجزائر منذ عهدها الأول بالعلم، وعلمت أن الشعب الذي يقرأ لا يجوع ولا يستعبد، فاهتمت بالتعليم، وسخرت له جندها، وشجعت الدولة الشباب على الالتحاق بمراكز العلم، ولم تجد مشكلا في إقناعه لأن الشعب الجزائري في أصله محب للعلم، وشغفه به كبير. وخير دليل على ذلك أنه كان يوجد في قسنطينة لوحدها قبل الاحتلال خمسة وثلاثين مسجدا تستعمل كمراكز للتعليم. كما كان هناك سبع مدارس ثانوية يحضرها ما بين ستمائة وتسعمائة طالب. وهناك تسعون مدرسة ابتدائية يحضرها حوالي 1350تلميذا. وفي العاصمة الجزائرية كان هناك عام 1830 اثنتا عشرة مدرسة، و349 زاوية تعليمية (زروقة، 1999، صفحة 30). وإنه لعدد معتبر جدا يثبت السياسة التعليمية المحكمة والإصرار على النهضة العلمية التي حققتها الدولة الجزائرية طيلة مسار وجودها الحضاري.

وهذا الانتشار الواسع لدور التعليم في المعاهد والمساجد والمدارس لم يكن موجودا عند الدول الاستعمارية آنذاك، والتي كان معظم ملوكها يجهدون أنفسهم في كبرهم كي يتعلموا شيئا من الكتابة والقراءة.. كما ذكرت لنا ذلك المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكة" في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب.

2.2 الحرب الفرنسية على القلم والكتاب:

إن الاحتلال الفرنسي ما كان ليعجبه الواقع التعليمي المنتعش في مختلف ربوع الوطن، فكان عليه أن يحارب العقل، وإن من أخطر الحروب التي يمكن أن تقضي على الانسان تاريخا وحضارة وانتماء هي الحرب الفكرية، محاربة العقل، قتل روح التفكير والتغيير، غلق نوافذ الحقائق، إنها الطرائق التي اعتمدها المستدمر الفرنسي، إلى درجة أنه كان إن سمح بتحفيظ القرآن فإنه يمنع من تفسيره. لقد ضيق الخناق على الجانب الفكري العربي. حتى كادت أن تنسي الشعب الجزائري تاريخه وانتماءه ودينه.

أعدت فرنسا المحتلة عدتها من أجل القضاء على معالم الدولة الجزائرية، فسطرت منذ البدئ استراتيجيتها التي تفضي إلى القضاء على الدين الإسلامي واللغة العربية وتاريخ الجزائر العريق الضارب في عمق الوجود. لقد عملت جهدها من أجل تحقيق مشروع فرنسة الجزائر بكل الوسائل والطرائق المتاحة لها.

ولتطمئن فرنسا إلى ضياع التعليم، فقد عملت على تحطيم معالم الانتماء الإسلامي بدءا بقضائها على المساجد فكان أول مسجد وقع عليه الاعتداء بالهدم الكامل هو جامع السيدة عام 1830. مسجد كان من أهم مساجد العاصمة وأجملها، وكان منارة

للعلم والمعرفة، بل إن مساجد الجزائر آنذاك كانت أشبه بمدارس اليوم وجامعاته، ثم تلاه توزيع المساجد على الجيش لربط خيوله ووضع عتاده ومراقده ومستشفياته، ثم بدأت في تحويل بعض المساجد إلى كنائس واقامات للجمعيات الدينية الفرنسية (سعد الله، 1998، صفحة 10). كما قامت السلطات الفرنسية بهدم خمس زوايا في مدينة الجزائر، مع القضاء على الكثير من المخطوطات، وصودرت عائدات وأوقاف المساجد والزوايا كاملة (زوزو، 2009، صفحة 215).

وشرعت فرنسا الاستدمارية تسنن القوانين للحد من حرية التعليم الإسلامي وذلك بالتدخل في مناهج التدريس، بل إنها حين فتحت مدارس فرنسية قبلت بأن يتعلم بعض أبناء الجزائر ممن قبلوا الفرنسة والتجنيس لكن التعليم كان في بداياته فرنسيا بحتا، وقامت بإدخال اللغة العربية بعد الإصلاحات التي قامت بها، ولكن ولأن معظم معلميها نصارى فقد رفض أغلبية الشعب ارسال أبنائهم للمدارس الفرنسية.

وقد عملت جهدها كي تنقل لهم تاريخ الجزائر مشوها محرفا لا يمت بصلة لتاريخنا وماضينا وهويتنا وأصالتنا. إذ كان مطمحها إزالة أمة عن وجودها: (زروقة، 1999، صفحة 27) "فلم يكن هدف الاستعمار الفرنسي تحقيق المشروع الاقتصادي فقط، وإنما جاء ليزيل أمة من وجودها، يمحو هويتها ومقومات شخصيتها، ويضرب عليها جدارا حديديا يعزلها داخليا عن ذاتيتها وأصالتها وتراثها ودينها ولغتها ويعزلها خارجيا عن محيطها الإسلامي والعربي. فحاصر المحتل اللغة العربية حصارا شديدا، إذ إن (سعد الله، 1998، صفحة 250) "القوانين الفرنسية كانت تعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر". ولا غرابة في هذه السياسة المعتمدة من فرنسا التي أعلنت حربها ضد الهوية الوطنية الجزائرية منذ وطئت أقدامها أرض الجزائر.

وهكذا.. دأبت في تعميم سياسة التجهيل ومحاربة تعليم القرآن وحفظه ونشر علومه، وذلك بتحطيم معظم الكتاتيب القرآنية والتي بلغ عددها قبل حلول فرنسا أرض الوطن 3000 كتابا ، كما اشترطت حصول المعلم على رخصة لمزاولة نشاطه التعليمي.

لقد منع الاحتلال الفرنسي من فتح مدارس عربية تعلم اللغة العربية منذ قرار تشرين الأول الذي أصدره عام 1892. وكذا القانون الذي أصدره في 24 كانون الأول 1904 والذي ينص على عدم السماح لأي معلم مسلم من أن يتولى إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية، دون رخصة يمنحه إياها عامل العمالة أو قائد الفيلق العسكري (زروقة، 1999، صفحة 28). رغم أنه وحسب احصائيات 1840 كان يبلغ تعداد سكان الجزائر 92000 نسمة وكان بها 24 مدرسة يتتلمذ فيها أكثر من 600 تلميذ، ولكن بحلول عام 1846 لم يبق منها سوى 14 مدرسة، و400 تلميذ (زوزو، 2009، صفحة 213).

وأوصدت فرنسا المحتلة باب التحدث باللغة العربية بحرية، بل إنها وبمجرد دخولها أرض الجزائر اعتبرت اللغة العربية لغة أجنبية وميتة، وجعلت من اللغة الفرنسية بقوة الظلم والطغيان لغة الجزائر الرسمية، منذ 1834 مع قرار الالتحاق الذي يقتضي بأن الجزائر ملحقة فرنسية (زروقة، 1999، صفحة 28).واقتصر التعليم العالي على المستشرقين بما يخدم أهدافهم التنصيرية والتجنيسية.

لقد عامل الاستعمار الفرنسي الغاشم الشعب الجزائري بقوانين خاصة في غاية الشدة والصرامة، فهم محرومون من حرية الكتابة، وحرية الاجتماع، بل من حرية السفر والانتقال وحرية مطالعة الكتب والجرائد.. منعتهم من فتح المدارس، وتأسيس الجمعيات، وضربتها بجدار من العزلة، وقد وصف "محمد فريد بك" المصري هذا الوضع حين زار الجزائر عام 1901 بقوله: (مطبقاني، 1999، الصفحات 25- 26) "يعامل المسلمون في الجزائر بقوانين مخصوصة في غاية الشدة والصرامة فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع، بل ومن حرية السفر والانتقال وحرية مطالعة الكتب والجرائد. كما أنها حولت المراكز التعليمية والتربوية إلى معاهد للتعليم

الفرنسي الخالص وبعضها إلى مخامر ودكاكين وثكنات ومرابط للخيل من أجل سلخ الفرد الجزائري وإذابته. وتجفيف منابع الثقافة الإسلامية".

لقد صرحت فرنسا علنا عن نواياها المبيتة والظاهرة في محاربة الوجود الجزائري، والكيان العربي الإسلامي، ولقد كانت جامعة الجزائر التي أنشئت في أواخر القرن التاسع عشر في مدينة الجزائر فرنسية لا تختلف عن أية جامعة أخرى في أرض فرنسا، وكانت الدراسة العربية الإسلامية فيها مقصورة على الاستشراق (سعيد اسماعيل، 2013، الصفحات 153 – 154).

وبهذا فقد ضمنت فرنسا لنفسها بأن نجحت في تكريس سياسة التجهيل التي تقود إلى تكميم الأفواه، لتتدرج نحو بسط نفوذها ليس السياسي فقط إنما السياسي والثقافي والاجتماعي وحتى الديني.

لقد كاد أن يخبو صوت الدولة الجزائرية المسلمة بتاريخها وهويتها ولغتها، خاصة بعد فشل الثورات الشعبية وطول مدة الاستيطان والاستدمار. وتشويه التاريخ، والعمل الدؤوب على القضاء على اللغة العربية، مع محاربة الإسلام قولا وممارسة. بل إنها جاهدت كي تحول الخطاب القرآني من كونه دستور حياة الجزائريين إلى مجرد آيات تتلى في زوايا المساجد والمناسبات الدينية شأنه شأن الكتب السماوية الآخرى.

ثم إن استيلاء المستدمر الفرنسي على أوقاف الشعب الجزائري أدى إلى تحطيم المورد المالي للتعليم الإسلامي، الذي كان يعتمد على هذه الأوقاف اعتمادا كليا، ولتضمن فرنسا ضياع التعليم وتفشي الجهل وانتشار الأمية التي أرادتها بقوة فقد قامت بالاستيلاء على المساجد وهدم معظمها، وتحويل بعضها إلى مكاتب وثكنات عسكرية، إنها تضرب عصفورين بحجر واحد.. محاربة الإسلام واللغة العربية في آن واحد.. وقد كانت هذه المساجد أشبه بمدارس اليوم وجامعاته. ولم يتوقف الأمر هنا.. حيث شرعت في تسنين القوانين التي تحد من حرية التعليم الإسلامي وذلك بالتدخل في مناهج التدريس وطرائقه (مطبقاني، 1999، صفحة 23). ونتيجة لهذه السياسة التعسفية بلغت نسبة الأميين في الجزائر أكثر من 90 ٪ (زروقة، 1999، صفحة 29)، بعد أن كانت الجزائر حاضرة العلم والمعرفة، وعاصمة الحضارة والمدنية، وقوة إقليمية مهابة.

المدارس الحرة ودورها الطليعي في الحفاظ على الهوية الوطنية

1.3 التعليم الحر قبل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

يقصد بالتعليم الحر التعليم الذي كان سائدا فترة الاحتلال الفرنسي والذي كان يجري في الزوايا والمدارس الحرة والكتاتيب القرآنية. يقوم على عاتق الشعب تأسيسا وتمويلا، لا يخضع لإدارة الاحتلال الفرنسي، يرتكز على اللغة العربية فهي الأساس، ويختلف عن التعليم الحكومي الذي سطرته الإدارة الفرنسية. ويتقاضى المعلم القائم على هذا التعليم الحر غير النظامي راتبه من تبرعات المتطوعين الراغبين في تعليم أبنائهم اللغة العربية والدين الإسلامي (سعد الله، 1998، صفحة 24).

يربط بعض الباحثين قيام التعليم الحر في الجزائر بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، في حين هناك من يرى أن التعليم الحر قام في الجزائر قبل تأسيس جمعية العلماء المسلمين، والقرائن التاريخية تثبت انتشاره قبل تأسيس الجمعية بسنوات طويلة، حتى أن الإمام "ابن باديس" كان يمتهن التعليم في المسجد الأخضر بقسنطينة قبل تأسيس الجمعية، وكان يدعو إليه ويشجع عليه. بل إنه

كان يباشر نشاطه التعليمي بالجامع الأخضر منذ سنة 1913. وفي سنة 1917 أنشأ مكتبا للتعليم الابتدائي العربي بمسجد سيدي بومعزة بقسنطينة ليصبح سنة 1930 مدرسة جمعية التربية والتعليم الإسلامية، وقد أشرف عليها بنفسه.

ثم إن المصادر التاريخية تؤكد أن أول مبادرة لتأسيس المدارس الحرة كانت في تبسة سنة 1913، من قبل جمعية تسمى "الجمعية الصديقية الخيرية للتربية الإسلامية والتعليم العربي والإصلاح الاجتماعي" برئاسة الشيخ "عباس بن حمانة". اهتمت المدرسة بالتربية الإسلامية وبالقرآن والأخلاق، والتاريخ الإسلامي، بما في ذلك تاريخ الجزائر والجغرافيا، كما اشتمل على المواد الرياضية والرياضة البدنية واللغة الفرنسية، ونص البرنامج على أن تكون مدة التعليم ثماني سنوات، وللتلاميذ الداخليين قسم للإقامة، لكن بعد عدة أشهر صدر الأمر بغلق المدرسة من قبل السلطات الفرنسية (سعد الله، 1998، صفحة ص.ص 242. 243).

في سنة 1927 قام مجموعة من شباب العاصمة بتأسيس مدرسة الشبيبة الإسلامية بالعاصمة بالحي المسمى باب الجديد، وبعدها انتقلت إلى حي الثعالبي، وكان للمدرسة مكانة وقيمة كبيرة في العاصمة، واستمر نشاطها حوالي 15 عاما، وبعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تعاونتا معا، وكانت العلاقات بينهما وثيقة (تركي، 1981، صفحة 233.234).

لم يتوقف الأمر عند حدود هاتين المدرستين فقد اهتمت الجمعيات والمؤسسات والأحزاب بإنشاء المدارس الحرة كمدارس حزب الشعب، والمدارس الميزابية، إضافة إلى النهضة العلمية المكثفة للمدارس الحرة التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين.. فدأبت هذه المدارس في الانتشار والتكاثر منذ العشرينات في معظم ربوع الوطن، وتبناها الشعب وأقبل عليها اقبالا كليا، والنموذج الذي تكرر في كل مكان هو جمعية محلية تنشأ من الأعيان في القرية أو الدوار، وتجمع المال بالتبرع ونحوه (هواري و مغدوري، 2021، صفحة 517).

تميز التعليم العربي الحر في الجزائر أنه تعليم ذو طابع ديني ولغوي مع شيء من التاريخ والجغرافيا والعلوم والرياضيات وكان من بين أهم أهدافها تعزيز مكانة اللغة العربية بين الجزائريين جميعا والتي كادت أن تندثر معالمها بسبب طول الاستيطان الفرنسي، والجهل، مع التوجه التغريبي من جهة والتوجه نحو استخدام اللهجة العامية المحلية أوساط الشعب الجزائري، فلم يكن هناك مكان لممارسة اللغة العربية الفصيحة، إلا مع البعض ممن سمحت له الفرصة باللجوء إلى الجامعات العربية خصوصا في ذلك الزمن جامعة الزيتونة.. كما سعت المدارس الحرة إلى تطهير العقول من أوهام الخرافات والدجل والفتن التي سكنته لعقود، وقد أشارت إلى هذه النقطة المهمة جريدة البصائر: (أبي اليقظان، 1354هـ / 1935م، صفحة 5) "لقد مرت على الشعب الجزائري أحقاب متطاولة، ساد فيها الجهل والخرافات ... فعاشت الأمة الجزائرية طيلة هذه الأحقاب بين فكي الجهالة والفوضى الدينية، تتقاذفها أمواج من الفتن، وتتقاذفها أعاصير من الشرور، إلى أن قيض الله لها من أبنائها رجالا علماء حكماء هم لها بمثابة المطر أوان الجدب وشدة القحط. درسوا علل الأمة وأدوائها وفحصوها بمسمار من العلم والعقل فوجدوا أصل دائها يرجع إلى أمرين خطيرين: تغلغل الجهل في أحشائها واستفحال الخرافات والأوهام، في أدمغة أبنائها".

لقد اقتصر التعليم الحر في بدايته على الكبار، يقول "ابن باديس": (الطالبي، 1997، صفحة 268): "كان التعليم المسجدي بقسنطينة قاصرا على الكبار ولم يكن للصغار إلا الكتاتيب القرآنية، فلما يسر لي الله الانتصاب للتعليم عام 1332هـ، جعلت من جملة دروسي تعليم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها في آخر الصبيحة وآخر العشية فكان ذلك أول عهد الناس بتعليم الصغار".

ثم إن الإمام ابن باديس تمكن من تحويل مكتبه الذي أسسه للتعليم الابتدائي إلى جمعية أسماها جمعية التربية والتعليم كانت تهتم بأمور التربية والتعليم. علما أن "ابن باديس" بدأ نشاطه الإصلاحي التعليمي بقسنطينة منذ 1913 يقول "ابن باديس" (الطالبي، 1997، صفحة 269) : "في سنة 1349هـ، 1930م رأيت أن أخطو بالمكتب "مكتب أسس للتعليم الابتدائي العربي" خطوة جدية وأخرجه من مكتب جماعة إلى مدرسة جمعية فحررت القانون الأساسي لجمعية التربية والتعليم الإسلامية وقدمته باسم الجماعة لمؤسسة إلى الحكومة فوقع التصديق عليه".

قام "ابن باديس" بمعية بعض رجال الإصلاح بتأسيس جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة على أنقاض جمعية مكتب التعليم العربي، وقد سطرت الجمعية أهدافها التعليمية، بتأسيس مدرسة التربية والتعليم، ونشر الأخلاق الفاضلة.

وكان أهم مشروع بنائي للجمعية هو بناء المدارس الحرة، وتشجيع التعليم العربي الحر الذي لقى صدى نفسيا واجتماعيا واسعا من قبل التلاميذ الذين ينحدرون غالبا من الأوساط الشعبية. حاملا على عاتقه مبدأ نشره في الشهاب: (ابن باديس، 1344هـ/ 1926م، صفحة 157) "نحن جزائريون مسلمون نحافظ على جزائريتنا واسلامنا".

أما عن ظروف تأسيس جمعية التربية والتعليم فيمكن إيجازها فيما يلي:

تضاعف نشاط الارساليات التبشيرية في الجزائر.

انحسار التعليم لعربي الإسلامي.

مرور قرن كامل على الاحتلال الفرنسي للجزائر.

ولذلك فقد كان القانون الأساس للجمعية هو نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف العربية والفرنسية وعدم الخوض في الأمور السياسية تفاديا للاصطدام بالسطات.

تأسيس مكتب لتعليم أبناء المسلمين الذين لم يتمكنوا من الالتحاق بالمدارس الحكومية وتثقيف أفكارهم بالعلم باللسانين العربي والفرنسي (حميداتو، 1997، صفحة 91).

لتكون بذلك جمعية التربية والتعليم أول جمعية إسلامية جزائرية تعنى بالتربية والتعليم، وتحمل على عاتقها مسؤولية انقاذ الجزائري من كارثة الذوبان التام في الآخر رغما عنهم، رخص لهذه الجمعية في قسنطينة. وقد كان مكتب التعليم العربي النواة الأولى التي انبثقت عنها هذه الجمعية وقد وقع الاختيار على ابن باديس رئيسا لها (حميداتو، 1997، صفحة 90).

اهتمت هذه الجمعية بالنشاط التربوي والتعليم بوجه خاص، حتى أنها فتحت قسما خاصا بالبنات. وعمل الشيخ "عبد الحميد بن باديس" مع صحابته الكرام الذين حملوا على عاتقه هم التغيير والاصلاح على تكوين الجمعيات المحلية التي تقوم بتأسيس المدارس وعمل على جمع التبرعات للإنفاق على التعليم وإمداد المدارس بالمعلمين والكتب. و (سعد الله، 1998، صفحة 152)"كان الوقف هو المصدر الأساسي لنشر التعليم والمحافظة على الدين".

كما ساهمت في إعادة الاعتبار لمكانة وهيبة اللغة العربية التي حاول الاستعمار الفرنسي طمس معالمها والإبقاء فقط على اللهجة العربية المحلية والتي لن تشكل خطرا كبيرا إذا ما قورنت باللغة العربية الفصحى الحاملة لوعاء الدين ولأبعاد ثقافية وحضارية تضرب بجذورها في عمق التاريخ.

يقول الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في هذا الصدد: (الطالبي، 1997، صفحة 265)"انها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين، أرواحهم

بأرواحنا وهي وحدها اللسان الذي نعتز به وهي الترجمان عما في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار وما في النفس من آمال وآلام، إن هذا اللسان العربي العزيز الذي خدم الدين وخدم العلم وخدم الانسان هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ زمان ونعمل على احيائه منذ سنين، فليحقق الله أمانينا".

ولقد كان الله يحقق آماله في كل خطو يخطوه، فنظرا لتأثير الجمعية بمبادئها في الجزائريين فقد سارع مجموعة من المصلحين متنافسين حول تأسيس المدارس الحرة في قسنطينة وتبسة وميلة وجيجل وغيرها.

إن رجال الإصلاح قد انجذبوا في هذه الفترة إلى فكرة التعليم والتي تمثل معركة أخرى بين الجزائريين والإدارة الاستعمارية، حيث تقوم هذه المعركة على مناورات جديدة، تستخدم العقل، وتجاهد بالفكر، بعدما رأى علماء الجزائر على قلتهم في تلك الفترة استفحال الجهل، وقرأوا مخططات المحتل التي قضت بالقضاء على العقل تمهيدا للقضاء على كل مقومات الشعب دينا ولغة وتاريخا وانتماء.

وكانت اللغة العربية التي سعت السلطات الفرنسية من أجل القضاء عليها تجد متنفسها فقط في معاهد التعليم العربي "الحر". بعد أن أوصدوا كل الأبواب المؤدية إليها.. التعليم الحر الذي كان يقوم على أكتاف الشعب الجزائري نفسه طوال مائة سنة من عمر الاحتلال، وهي السنة السابقة لظهور جمعية العلماء.

2.3 جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والانتشار الواسع للمدارس الحرة:

يعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 17 من ذي الحجة 1349هـ/ 5ماي 1931م فتحا آخر يحققه الشعب الجزائري، ويحققه الإمام "ابن باديس" رفقة جملة من صحابته الكرام أمثال البشير الابراهيمي، العربي التبسي، الفضيل الورثلاني، الطيب العقبي وغيرهم.. يقول "عبد الحميد بن باديس" في مقال له منشور في الشهاب: (ابن باديس ، صوت العلم يناديكم .. فهل من مجيب؟، 1344هـ/ 1926م، صفحة 185. 186) "لهذا نريد من المنسوبين للعلم أن يدعوا الناس إلى طلب العلم بنفوس ملؤها الغيرة الصادقة على بث الروح العلمية وأن لا تأخذهم السآمة على تلك الدعوة، وألا يذعنوا للوسط بترك تلك الدعوة، وأن يشمروا عن ساق الجد والاجتهاد، وأن يعتبروا أنفسهم أبطال النهضة العلمية، وهم إن عاشوا عاشوا سعداء، وإن ماتوا ماتوا شهداء، فعلى الخطباء أن يملؤوا خطبهم بنصائح علمية تحببهم في طلب العلم، وعلى المدرسين وكل من فيه رائحة العلم أن يكثروا من الوعظ والإرشاد إلى التعليم، فعليهم بالمثابرة فإن تأثير مقالهم في النفوس منوط بالمداومة على الدعوة. فهذه لم تكن مجرد جمعية.. كانت مهادا لتحرير شعب بأكمله من سلاسل وأغلال الجهل والطغيان الذي تمارسه عليه السلطات الفرنسية، مجاهدين من أجل المحافظة على هوية قوم، ومقدسات أمة.. يقول الشيخ "عبد الحميد بن باديس" (الطالبي، 1997، صفحة 265) :"نحن قوم مسلمون، جزائريون في نطاق مستعمرات الجمهورية الفرنسوية، فلأننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو إلى كل كمال انساني، وتحرص على الأخوة والسلام بين شعوب البشر وفي المحافظة على هذه التقاليد المحافظة على أهم مقومات قوميتنا وأعظم أسباب سعادتنا وهنائنا"... تصريحات ابن باديس توحي بالذكاء الذي يتمتع به، إذ يتحدث بمنطق مصلحة الجميع، كي لا يثير غيظ المستعمر.. ورغم ما عاناه من ويلات المستعمر بغلقه لبعض المدارس ومنعه من آداء نشاطه الصحفي وإيقاف مجلاته إلا أنه لم يستسلم، وفي كل مرة يكون له وللجمعية ردا يليق بوثبة شعب متحمس قوي..

وكان التعليم الحر طريق الجمعية الأساس وطريقتها، شرعها الذي آمنت به وشريعتها. (سعيد اسماعيل، 2013، صفحة 163) "نشطت حركة انشاء المدارس الوطنية، حتى بلغ عدد مدارس الجمعية 150 مدرسة، يتردد عليها أكثر من خمسين ألف تلميذ، بنين

وبنات، يدرسون مبادئ لغتهم، وآدابها وأصول دينهم، وتاريخ قومهم". ويهتم ابن باديس بأن يذكر البنين والبنات، لأن التعليم الحر لم يقتصر على الذكور، إنما في العلم الذكر والأنثى سواء كما هما في المسؤولية المنوطة بهما في الحفاظ على هوية الوطن.

تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد أشهر قليلة من تأسيس جمعية التربية والتعليم المحلية لتوسع من نشاطها وتنظر في قضايا الأمة الخطيرة.. كان هدفها إصلاحي في كل المجالات، رغم أنهم كانوا يكتفون في تصريحاتهم أن الإصلاح إنما هو اصلاح ديني وتعليمي ابداء لأشياء واخفاء لأخرى.

يعتبر التعليم العربي الحر في المكاتب القرآنية وفي المدارس الحرة من أكبر الأساليب التي اعتمدها رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لتكوين وتعليم وتربية أكبر عدد ممكن من أبناء الجزائر الذين سيحملون على عاتقهم رسالة كبيرة ويتحملون مسؤوليات جمة فيما بعد (بعلوج، 1919، صفحة 197). ربما كان أهمها تهيئة جيل يحمل مشعل الثورة. ثورة بالقلم والسلاح، وهو ما تهيأ لهم فعلا.. فمما رد في الشهاب: (ابن باديس ، صوت العلم يناديكم .. فهل من مجيب؟، 1344هـ/ 1926م، صفحة 186) "يجب عليكم الإصداع بقضية العلم والتعليم

ركزت الجمعية على التعليم العربي الإسلامي بإنشاء المدارس وتشجيع التعليم، فاهتمت بداية بالتعليم المسجدي، فوضعت برامج واسعة لنشر التعليم الديني والعربي للصغار المبتدئين وتكميل معلومات من درسوا بالأجنبي، كما اهتمت بدروس الوعظ والإرشاد للكبار فشيدت المدارس وفتحت النوادي لإلقاء المحاضرات في التهذيب وشؤون الحياة العامة (حميداتو، 1997، الصفحات 100 – 101).

أدرك الشيخ "ابن باديس" بحنكته وغيرته على الدين والوطن عظم المسؤولية التي تنتظره وتنتظر الجمعية، وفهم أن أهم عناصر القوة للتأثير في المجتمع الجزائري ونجاح الدعوة للنهضة في مجال الإصلاح الديني والاجتماعي والوطني لا يتحقق إلا عبر وسيلتين أساسيتين مهمتين هما المدارس والصحف، فوجه نظره نحوهما وقرر المبادرة والعمل تحت أي ظروف وأي مناخ وأجواء مهما بلغت التضحيات، من أجل الوصول إل هدفه في احياء روح الوطنية والهوية والفخر بالانتماء للإسلام واللغة العربية .. فكان الإسلام الجزائري حسب تصريح الابراهيمي موزعا على طريقين، ويسلك مسلكين اثنين: نهج الزوايا المنتشرة في الريف بشكل خاص، ونهج العلماء الذين انطلقوا من المدن وأرادوا التركيز على تعليم الجماهير، وسلاحهم في ذلك الصحافة والمدرسة، بالإضافة إلى وجود بعض المطابع مثل مطبعة ابن خلدون بتلمسان، ومطبعتي العربية والثعالبية في الجزائر، والنهضة والشهاب في قسنطينة. وهكذا استكملوا العدة الفكرية والمادية لحركتهم (محمد مقبل، 2002، صفحة 256).

عملت الجمعية على اصلاح التعليم العربي الديني في نظمه وبرامجه وطرق تدريسه، فقد كان التعليم العربي الحر حين تأسست جمعية العلماء يدور في دائرة ضيقة، من أمكنته وأساليبه، وكتبه، فسعت الجمعية بما استطاعت من أسباب أن توسع دائرة الأمكنة، بإحداث مكاتب حرة، مدارس للتعليم المكتبي المدرسي للصغار وبتنظيم دروس الوعظ والإرشاد الديني في المساجد وبتنظيم محاضرات في التهذيب وشؤون الحياة العامة.

كما أنه في سعي الجمعية لإصلاح أساليب التعليم قضت على الأساليب العتيقة القديمة التي كان يسير بها التعليم لزمن طويل حيث كانت البرامج التعليمية يعدها المعلمون أنفسهم. ففي 15 ديسمبر 1935 عقدت الجمعية مؤتمرها السنوي بنادي الترقي في العاصمة. وكان مقررها إعطاء حلول للنهوض بالتعليم في المدارس الحرة. واتفقوا على تأسيس لجنة من ذوي الخبرة بشؤون التعليم

تتولى تسييره واصلاحه، واختيار الكتب الحيوية الحديثة، ويتوقف أيضا على مادة المعلم في التدريس وأسلوبه فيه مع التركيز على التربية الصحيحة.

ورغم ذلك بقي معلمو المدارس الحرة يعتمدون على البرنامج الذي يعده كل معلم على حدة إلى غاية شهر سبتمبر 1937حين دعت جمعية العلماء المسلمين إلى انعقاد مؤتمر رجال التعليم العربي بنادي الترقي يومي 22 و23 سبتمبر 1937 لتقديم مقترحات حول توحيد التعليم بمختلف المدارس الحرة، والنظر في أسلوبه وكذا أسلوب تربية الناشئة، أما مفردات البرامج التي اعتمدت عليها مدارس الجمعية فلم تكن قارة حيث وقعت عليها تحويرات بالزيادة والنقصان، مراعين في ذلك ظروف التلاميذ خاصة بعد أن تكونت لجنة التعليم العليا (بعلوج، 1919، صفحة 200).

اتفق أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بنادي الترقي على ضرورة النهوض بالتعليم في المدارس الحرة، فاتفقوا على تأسيس لجنة من ذوي الخبرة بشؤون التعليم، تتولى تسييره واصلاحه، واختيار الكتب الحيوية الحديثة، كما يتعلق الأمر بمادة المعلم في الدرس وأسلوبه فيه، واتفقوا على ضرورة اعتماد المعلمين على الطرائق الحديثة في التدريس دون اغفال جانب التربية والتهذيب.

والجميل في الأمر أن نادي الترقي نظم ما بين 1927 و1929 حوالي ثلاثين محاضرة باللغة العربية وعشر محاضرات باللغة الفرنسية. وكان النادي يشجع الحياة الفنية الموجهة لأداء رسالة اجتماعية (سعد الله، 1998، صفحة 315)، وهذا الفارق في حد ذاته إنجاز كبير في دولة توقعت فرنسا أنها أنست شعبها لغته.

أما بالنسبة لسنوات التعليم فإنه كان يمتد في المدارس الحرة لست سنوات، وتقسم هذه السنوات في مدارس جمعية العلماء إلى ثلاثة أقسام:

القسم التحضيري والقسم الابتدائي، والقسم المتوسط، وكل قسم تخصص له سنتان.

ويشمل البرنامج المعتمد المواد التالية: القراءة، اللغة العربية "النحو، الاملاء، المحادثة"، الخط، التعليم الديني والخلقي، التاريخ، الجغرافيا، الحساب والهندسة، أشغال يدوية، رسم، تمارين رياضية. كما خصصت برنامجا لتلاميذ المدارس الفرنسية (هواري و مغدوري، 2021، صفحة 522).

رغم الانتشار المحتشم للمدارس الحرة منذ العشرينات من القرن الماضي إلا أن تجربة المدارس الحرة مع جمعية العلماء المسلمين تعد من التجارب الرائدة في تأسيس وتسيير التعليم الحر سواء من حيث عدد المدارس التي أسستها، أو التنظيم والتسيير الدقيق الذي كانت تخضع له، أو من حيث البرامج المعتمدة.

(بعلوج، 1919، صفحة 198)"عندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، أكدت في أدبياتها أنها حركة تهذيبية، تربوية، تعليمية يتبناها كل من يؤمن بغايات هذه الحركة الجديدة، فظهر على اثرها في الساحة الجزائرية تأسيس المدارس الحرة، والنوادي الثقافية والجمعيات الكشفية والرياضية، وبما أن عددا من قيادات هذه الجمعية درس في جامع الأزهر بمصر وفي الزيتونة بتونس، فقد كانت مراميهم منصبة على نشر التعليم العربي في مختلف مناطق الجزائر سواء في المدن أو حتى في القرى والمداشر، وذلك من خلال تأسيس المدارس الحرة خاصة الموجهة للتعليم الابتدائي لتعليم أكبر عدد ممكن من التلاميذ فيها".

لقد سعت جمعية العلماء إلى فتح أكبر عدد ممكن من المدارس في القطر الجزائري، وقد نصت صراحة على ذلك في قانونها الداخلي، فكانت المدرسة الأولى التي أنشأتها هي مدرسة الشبيبة الإسلامية بالجزائر، ومدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، ومدرسة تهذيب البنين والبنات بتبسة.

ثم إنها انتشرت انتشارا واسعا بسبب تكاتف الجهود وتلقي الشعب الجزائري لها، لقد كان متعطشا للعلم الذي يربطه بدينه وتاريخه ولغته ووطنه. فبلغ ما فتحه الإصلاحيون من المدارس عام 1945 حوالي 150 مدرسة موزعة في مختلف أنحاء الجزائر، وقد وصل عدد تلامذتها إلى أكثر من 40ألف تلميذ، أي ثلث عدد التلاميذ المسجلين في ذلك الوقت في المدارس الفرنسية. ومن الملفت للنظر أنهم افتتحوا أول مدرسة للبنات عام 1919م مما يدل على سعة أفقهم وحرصهم على تعليم المرأة. وأقرت الجمعية بمجانية تعليم المرأة، في حين يمكن للقادر من الذكران دفع حقوق التمدرس (محمد مقبل، 2002، صفحة 257).

لقد استوعبت جمعية العلماء منذ البدئ خطر ما قامت وتقوم به السلطات الفرنسية في الجزائر، وعلمت أن الحل الأنجع هو اخراج الشعب من براثين الجهل التي يغوص فيها وذلك بفتح مدارس للتربية والتعليم. وكان أعضاء الجمعية على وعي تام بأن المدرسة هي طريق الجهاد الحق، وإنها طريق النجاة، وإن المدرسة وحدها من تعبد طريق الحرية والتحرر. فعملوا على تكوين فرد جزائري متعلم يدرك ما يحيط به، ويعايش الوقائع والمستجدات على جميع الأصعدة، يفقه دينه، وتتطهر عقيدته، ويجيد لسان قومه، ويقرأ أدبه وتاريخه، ويناقش في السياسة والاقتصاد.

كما ساهم "ابن باديس" وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بكل عضو من أعضائها المتفانين في خدمة الهوية الوطنية في انشاء المدارس والمؤسسات الخيرية وجمعيات التجار، وجمعيات الكشافة، والجمعيات الرياضية والفنية، نهوضا بالثقافة الوطنية في كل مجالاتها، وجمعا لأهل الفضائل للتبرع ومساندة ومساعدة المعوزين، مع تقديم خدمات مادية لتنشيط الثقافة والتعليم الجزائريين، بعدما كانت السلطات الفرنسية قد حاصرت مساهمات الوقف، وتخلصت منه تماما..

لقد اتفق "ابن باديس" مع "البشير الابراهيمي (مطبقاني، 1999، صفحة 51) وهما في المدينة المنورة يخططان لتفعيل الثورة الفكرية الجزائرية على "إعادة تكوين الفرد الجزائري، معتمدان على الكيف لا على الكم، أي تربيته تربية صحيحة ولو مع قليل من العلم" وذلك ما تم لهما وللجمعية في بدايتها. لكن فيما بعد تطورت الجمعية وتطورت أساليب التعليم، وانتشرت المدارس، وزاد منسوب المتعلمين، والتف الشعب حول الجمعية وحول الإمام "ابن باديس" مقدمين مساندتهم ومساعدتهم المادية والمعنوية.

فسار "ابن باديس" بالمسجد الأخضر خطوات عملاقة حتى صار مدرسة لتكوين القادة، وذلك بتربيتهم على الإحساس بما أصاب أمتهم من الوهن والضعف وتعويدهم على الإحساس بأن مسؤوليتهم ليست مجرد تلقي العلم وتلقينه بل انقاذ أمتهم مما وصلت إليه. وكان الطالب حين يلتحق بالمسجد الأخضر يجد نفسه في مؤسسة تعليمية تحرص عليه علميا وأخلاقيا واجتماعيا وماديا (مطبقاني، 1999، صفحة 53).

ولم تكن التربية عن "ابن باديس" ملئ أذهان الطلاب بالمعلومات وفقط، أو تحفيظهم العلوم والمعارف التي تؤهلهم لان يكونوا في مستوى التطور الحاصل في الوطن بل تعدتها الى تربية كاملة متكاملة برفع مستوى الأفراد الفكري والسياسي والاجتماعي والأخلاقي وجعلهم أصحاب هم عالية (مطبقاني، 1999، صفحة 55).

سعت جمعية العلماء إلى اعتماد نظام حديث في التعليم يشتمل على القرآن الكريم أولا، ثم على القراءة والكتابة، وكل ما له علاقة بأدوات اللغة العربية، وأيضا علوم الدين، والحساب، وإن أغلب معلمي هذه المدارس الحرة هم خريجو الأزهر والزيتونة كل معلم يؤدي رسالة التعليم بناء على كفاءته. مستندين على مبدأ أن التعليم في الجزائر بات ضرورة ملحة كونه مشروع حضاري لإحياء الشعب الجزائري.

وكانت جهود الجمعية في هذا الميدان تدور على محاور ثلاثة: احداث مكاتب حرة للتعليم المكتبي للصغار.

-دروس الوعظ والإرشاد الديني في المساجد العامة.

-تنظيم محاضرات في التهذيب وشؤون الحياة العامة في النوادي (حميداتو، 1997، صفحة 102)

كانت الدروس التي يتلقاها التلاميذ تسمح لهم بعد اجتياز الاختبارات من الحصول على الشهادة الابتدائية كما أنها تؤهلهم للالتحاق بمستوى التعليم الثانوي، ولم يتمكن القائمون على التعليم من انشاء هذه الشهادة إلا في سنة 1952 عندما قررت جمعية العلماء من انشاء شهادة ابتدائية أطلق عليها اسم الشهادة الابتدائية للتعليم الديني العربي. وكان لهذه الشهادة تأثيرها ووقعها في نفوس الناشئة، شجعتهم أكثر على التعلق بالمدارس، وكان المتخرج من الثانوية يتخرج بكفاءة عالية.

ثم إن جهود الجمعية المنصبة في هذا المضمار أعادت الاعتبار لكرامة الشباب الجزائري الذي كان يشكل نسبة لا تتجاوز 10 بالمائة من جملة الأطفال المتمدرسين، والمحرومين من تعلم لغتهم الوطنية (سعيد اسماعيل، 2013، صفحة 155).

اتسمت المدارس بحسن التسيير من حيث التدريس ومن حيث الاستقبال، وضبط المواقيت والبرامج، وتحيين المناهج التي تتماشى مع مستوى المتعلمين ونوعيتهم، سواء الملتزمون بالدراسة أو الكتاب، مع معرفة وتتبع الوضعية الاجتماعية لمختلف التلاميذ ومتابعتهم حتى خارج المدرسة للتقليل من مخاطر التسرب المدرسي إضافة إلى ارتباط المعلمين بالمتعلمين في علاقات طيبة راقية. لقد وجد "ابن باديس" وجماعته المجتمع الجزائري يسبح في بحر الجهل والانحلال الخلقي يحمل أفكارا دخيلة مسمومة. فسار الشيخ مقتفيا نهج الشيخ "محمد عبده،" متتبعا آثاره فكان كان يرى أن اخراج المجتمع من براثين الجهل والتخلف والضياع إنما يكون بالتربية والتعليم والتغيير والذي لا يتأتى إلا بإصلاح البرامج التعليمية.

ويمكن أن نشير إلى دور الصحافة التي أنعشت الحركة الفكرية الجزائرية، فكانت الصحافة المكتوبة مرصدا هاما يساهم في تثقيف الشعب الجزائري، خاصة مع قلة الكتب التي تملكها المكتبة الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، فبعضها أتلف، وبعضها أهمل، وبعضها أحرق، وبعضها هجر. وما بقي منها كان يتنقل بالبيع والاستنساخ والاستلاف والهدايا، أما كتب المساجد والزوايا والمدارس فقد كانت موقوفة على العلماء والطلبة الزائرين. لذا كانت الصحف عوضا جميلا يطلع المواطن على الخبر، ويتعلم منها الدين واللغة.. خاصة وأن الأقلام التي تكتب فيها كانت أقلاما جادة، قوية ومتمكنة. إنها أقلام علماء كبار.

ومن بين الصحف نذكر: السنة المحمدية. الشريعة المطهرة. الصراط السوي. البصائر. صحيفة المنتقد، توقفت بعد صدور عدد واحد فقط، مجلة الشهاب، البصائر.

كما كان لتأسيس المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة عام 1952 دورها الكبير في تفعيل الحركة العلمية، والنهضة بالفكر، وتسهيل وظيفة المعلم والمتعلم، كذا تسهيل نشر صحف الجمعية طبعها لمجلة الشهاب والبصائر (محمد مقبل، 2002، صفحة 262).

عملت جمعية العلماء على تطهير العقيدة من الشوائب، وعلى التعليم العربي الإسلامي، والمحافظة على هذا الوطن بكل تراثه، تمكنت من احياء اللغة العربية وآدابها وتاريخها، في وطن ممتد معروف بتعدد ثقافاته ولهجاته وارثه الحضاري والتاريخي.

لقد بعث "ابن باديس" في الجزائر نهضة عربية إسلامية واسعة النطاق أعادت للعالم المسلم مكانته في المجتمع الإسلامي كرائد من رواد نهضته وقائد من قادته الى الخير والصلاح ومقاومته الفساد والاستبداد والظلم والطغيان الاجتماعي والسياسي.

وفي وقت وجيز – إذا ما قارناه بعقود طويلة من سياسة التجهيل والتنكيل والظلم والغطرسة والاستبداد – تمكنت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين برئيسها وقادتها ومدارسها وصحافتها من اخراج الشعب الجزائري من غمرات الجهل والتخلف إلى نور العلم والمعرفة، والعلم هو طريق العمل. يقول "ابن باديس" في هذا الصدد ما معناه أن الذي يقرأ تاريخ الجزائر الحديث يجزم بأن هذا

الشعب شعب حي لا يموت. يقول عن نفسه وهو يتحدث عن شبه يأس ألم به.. لأنه كان يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر قريبا من الفناء، ليست له مدارس تعلمه، وليس له رجال يدافعون عنه ويموتون عليه، بل كان في اضراب دائم مستمر ويا ليته كان في حالة هناء.. ويردف وكان أبناؤنا يومئذ لا يذهبون إلا للمدارس الأجنبية أي الفرنسية التي لا تعطيهم غالبا من العلم إلا ذلك الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف، حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكرونها هذه هي الحال التي كنا عليها في تاريخنا الحديث، وما كنا لنرضى بها أو نبقى عليها وقد ولدتنا أمهات مسلمات جزائريات يأبين أن نبقى إلا كما ولدنا وتأبى ثقافتنا إلا أن نرجع إلى ما كنا عليه (الطالبي، 1997، صفحة 266).. وقد حقق مطلبه بجهاد علمي متواصل، صنع الرجال والنساء.. ودفع بهم إلى تحرير الوطن.

خاتمة:

إن بعض الرجال لوحدهم أمة، والشيخ ابن باديس كان أمة، وكان مع ثلة من صحابته الأفذاذ يشكلون كتلة التحدي والإصلاح.. اقترنت أسماؤهم باسم الجزائر، وأثرهم وتاريخهم بتاريخ وطنهم.

لنتأكد مرة أخرى أن الجزائر فعلا أرض المعجزات لا توجد قوة يمكن أن تمسح عنها انتماءها الديني الإسلامي وارتباطها باللغة العربية واعتزازها بتاريخها الضارب في عمق الوجود الإنساني والحضاري.

عملت الجمعية على تشجيع العلم وتمكينه في النفوس بوسائل علنية واضحة لا تتستر. عملت على تعليم الدين الإسلامي الصحيح وتعليم اللغة العربية لأن الإسلام واللغة العربية شيئان متلازمان، فكان طلبة هذه المدارس الحرة يتلقون مبادئ الدين الصحيح عقيدة وممارسة، ويتلقون مبادئ اللغة العربية الفصحى نطقا وكتابة وإنشاء، ويتربون على الوطنية الحقيقية، والهداية الإسلامية، والآداب العربية.

وإنها تقف دائما بالمرصاد لكل من يحاول أن يمسخها ويمسخ تاريخها وماضيها، فيقوض الله لها من يوقظها من سباتها، فكانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان رجال أرادهم الله أن يلتحموا ليحافظوا على رسالة الجزائر في الوجود.

وهكذا ندرك يقينا أن الإرادة تصنع المعجزات وتقهر المستحيلات، وإن العمل الجمعوي حين يكون خالصا لوجه الله تكون نتائجه مثمرة.

وقد توصلنا من خلال هذه الورقة البحثية إلى استنتاجات هامة من بينها:

- إن المدارس الحرة كانت موجودة قبل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لكن زاد انتشارها، وحسن تنظيمها مع الجمعية، وكانت تمول بمساهمات الشعب الجزائري القادر على ذلك.
- تمكنت المدارس الحرة من محاربة سياسة التجهيل التي مارستها السلطات الفرنسية، ومكنت الشباب الجزائري من أن يفقه دينه ولغته ويعتز بانتمائه الحضاري.
- ساهمت جمعية العلماء المسلمين بما قامت به من إصلاحات في تكوين شعب متعطش للحرية عامل لها بحنكة وذكاء.

المصادر والمراجع:

أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي. *5*.

أبي اليقظان. (الجمعة 1 شوال/ ديسمبر, 1354هـ / 1935م). موجة الاصلاح الديني والعلمي بالقطر الجزائري. *البصائر، العدد1*.

رابح تركي. (1981). التعليم القومي والشخصية الوطنية 1931 - 1956. *دراسات تربوية للشخصية الجزائرية*.

سليم بعلوج. (1919). تأثير التعليم العربي الحر في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية 1931 - 1954 جمعية العلماء المسلمين أنموذجا. *الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، 12* (1).

عبد الحميد ابن باديس . (30 شوال/ ماي, 1344هـ/ 1926م). صوت العلم يناديكم .. فهل من مجيب؟ *الشهاب، 45*، 3.

عبد الحميد ابن باديس. (30 شوال/ ماي, 1344هـ/ 1926م). اقتراح الجمعية الجزائرية للتعليم الثانوي. *الشهاب*، 3.

عبد الحميد زوزو. (2009). تاريخ الاستعمار والتحرر في افريقيا وآسيا.

عبد الرحمان ابن خلدون. (1984). *تاريخ ابن خلدون*. بيروت: دار القلم.

عبد الرشيد زروقة. (1999). جهاد ابن باديس ضد الاستعمار في الجزائر.

علي سعيد اسماعيل. (2013). جهود ابن باديس في الحفاظ على الهوية العربية الاسلامية. *مجلة المسلم المعاصر*(149).

عمار الطالبي. (1997). *آثار ابن باديس* (الإصدار ط3، المجلد ج2). الجزائر: الشركة الجزائرية عبد القادر بودواو.

فريد حاجي. (2013). السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر. *المنطلق – السيرورة – المآل. 1837 - 1937*.

فهمي توفيق محمد مقبل. (2002). عبد الحميد بن باديس رائد الاصلاح والنهضة في تاريخ الجزائر الحديث. *مجلة الدرعية*(20).

مازن صلاح مطبقاني. (1999). عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي.

مصطفى محمد حميداتو. (1997). *عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية* (الإصدار ط1). قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.

منيرة هواري، و حسان مغدوري. (2021). اصلاح التعليم العربي في المدارس الحرة بالجزائر – جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجا. *مجلة عصور الجديدة، 11* (2).

Abū al-Qāsim Sa‘d Allāh. (1998). Tārīkh al-Jazā’ir al-Thaqāfī. 5.

Abī al-Yaqẓān. (al-Jum‘ah 1 Shawwāl / Dīsimbir, 1354h / 1935m). mawjah al-iṣlāḥ al-dīnī wa-al-‘ilmī bi-al-quṭr al-Jazā’irī. al-Baṣā’ir, al‘dd1.

Rābiḥ Turkī. (1981). al-Ta‘līm al-Qawmī wa-al-shakhṣīyah al-Waṭanīyah 1931-1956. Dirāsāt tarbawīyah lil-shakhṣīyah al-Jazā’irīyah.

Salīm Ba‘lūj. (1919). Ta’thīr al-Ta‘līm al-‘Arabī al-Ḥurr fī al-Jazā’ir khilāl al-fatrah al-isti‘mārīyah 1931-1954 Jam‘īyat al-‘ulamā’ al-Muslimīn anmūdhajan. al-Akādīmīyah lil-Dirāsāt al-ijtimā‘īyah al-Insānīyah, 12 (1).

‘Abd al-Ḥamīd Ibn Bādīs. (30 Shawwāl / Māy, 1344h / 1926m). Ṣawt al-‘Ilm ynādykm .. fa-hal min Mujīb? al-Shihāb, 45, 3.

‘Abd al-Ḥamīd Ibn Bādīs. (30 Shawwāl / Māy, 1344h / 1926m). iqtirāḥ al-Jam‘īyah al-Jazā’irīyah lil-ta‘līm al-thānawī. al-Shihāb, 3.

‘Abd al-Ḥamīd Zūzū. (2009). Tārīkh al-isti‘mār wa-al-taḥarrur fī Afrīqiyā wa-Āsiyā.

‘Abd al-Raḥmān Ibn Khaldūn. (1984). Tārīkh Ibn Khaldūn. Bayrūt : Dār al-Qalam.

‘Abd al-Rashīd Razzūqah. (1999). Jihād Ibn Bādīs ḍidda al-isti‘mār fī al-Jazā’ir.

‘Alī Sa‘īd Ismā‘īl. (2013). Juhūd Ibn Bādīs fī al-ḥuffāẓ ‘alá al-huwīyah al-‘Arabīyah al-Islāmīyah. Majallat al-Muslim al-mu‘āṣir (149).

‘Ammār al-Ṭālibī. (1997). Āthār Ibn Bādīs (al-iṣdār ṭ3, al-mujallad j2). al-Jazā’ir : al-Sharikah al-Jazā’irīyah ‘Abd al-Qādir bwdwāw.
Farīd Ḥājjī. (2013). al-siyāsah al-Thaqāfīyah al-Faransīyah fī al-Jazā’ir. almnṭlq-al-sayrūrah-al-Ma’āl. 1837-1937.
Fahmī Tawfīq Muḥammad Muqbil. (2002). ‘Abd al-Ḥamīd ibn Bādīs Rā’id al-iṣlāḥ wa-al-nahḍah fī Tārīkh al-Jazā’ir al-ḥadīth. Majallat al-Dir‘īyah (20).
Māzin Ṣalāḥ Muṭabbaqānī. (1999). ‘Abd al-Ḥamīd ibn Bādīs al-‘ālam al-rabbānī wa-al-za‘īm al-siyāsī.
Muṣṭafá Muḥammad Ḥamīdātū. (1997). ‘Abd al-Ḥamīd ibn Bādīs wa-juhūduhu al-Tarbawīyah (al-iṣdār Ṭ1). Qaṭar : Wizārat al-Awqāf wa-al-Shu’ūn al-Islāmīyah.
Munīrah Hawwārī, wa Ḥassān mghdwry. (2021). iṣlāḥ al-Ta‘līm al-‘Arabī fī al-Madāris al-ḥurrah bi-al-Jazā’ir-Jam‘īyat al-‘ulamā’ al-Muslimīn al-Jazā’irīyīn anmūdhajan. Majallat ‘uṣūr al-Jadīdah, 11 (2).